

حصان طروادة الاستعماري في حياتنا الثقافية

بقلم غالى كاري

لمفامرات فتى العصر الاميريكي : الجاسوس ! ولن نستطيع ان نحصر عدد المجلات اللبنانية من حيث المظهر ، الاميريكية من حيث الجوهر ، المجلات التي تسمى نفسها « المفامر » او « الابطال » او غير ذلك من الاسماء التي تستهوي اعمار ابنائنا الفضة ، وتستهدف تنشئتهم على هذا المثال الذي ترسمه المخابرات الاميريكية .

والملاحظ ان هذه المجلات قد ظهرت كسيل جارف في السنوات الخمس الاخيرة ، اي في الوقت الذي تكاد فيه السوق الوطنية ان تخلو من مجلات جادة للاطفال .. فالجهات المعنية في الولايات المتحدة تبدي اهتماما كبيرا بمسألة التوقيت الزمني .

وفي كتاب « الحرب النفسية - الجزء الاول » لصالح نصر يقول (في ص ١٤٤ و ١٤٥) : ان الامر الذي اعاد تحديد مهام كل من معلومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية في اميركا كان مسؤولا الى حد كبير عن طبيعة الحرب النفسية التي انشئت اثناء الحرب في القيادات الوجودية فيما وراء البحار .. وان المنطقة التي بدأت فيها الولايات المتحدة بمجهود عسكري في الحرب النفسية هي شمال افريقيا . وهكذا صدرت في مصر عام ١٩٤٣ مجلة « المختار » التي كتب على غلاف عددها الاول ان مدير تحريرها : فؤاد صروف وان مديرها المالي : ت. ي. مورد . وقد ظلت هذه المجلة خمسة اعوام ، اي الى عام ١٩٤٨ حيث توقفت ، تؤكد على ان الجيش الاميريكي حصن السلام في العالم ، وان الولايات المتحدة هي حامية الحرية على ظهر الارض . كذلك فان الرسالة الحضارية للانسان الاميريكي « الثري بطبيعة بلاده » هي الارتفاع بمستوى الشعوب المتخلفة « الترف مملكة للحضارة - المختار - يوليو ١٩٤٦ » . وتقديم صورة سحرية عن البلدان المناضلة ضد الاستعمار ، فهي بلاد الفموض والنساء الساحرات . ثم تقديم الرأسمالية الاميريكية في ثوب جديد يسمونه الرأسمالية الشعبية حيناً ، والاشتراكية الجديدة التي تمزج بين كرامة الانسان وحرية حيناً آخر (المختار - اكتوبر ١٩٤٦) . واخيراً تقديم « فتى العصر » او « البطل » في صورة العصامي الذي يبسدا من السفح حتى يصل الى القمة . كان ذلك خلال السنوات الخمس من ١٩٤٣ الى ١٩٤٨ حيث لم تكن قد اسفرت اميركا بعد عن وجهها الاستعماري العدواني بجلاء . ثم توقفت « المختار » عن الصدور سبع سنوات ، وعادت الصدور في اول يناير ١٩٥٦ حيث كشفت اميركا عن الوجه الارهابي المباشر في تهديدها بالسلاح .. فهكذا لم تعد الولايات المتحدة حامية للفكر والحضارة والحرية وغيرها من المجردرات والمعنويات والقيم ، بل أصبحت حامية للارض والناس .. تهدد « في عدد فبراير من المختار » بقول الكاتب « هنا تصنع القنبلة الهيدروجينية » او « الفواصة الذرية سلاح رهيب » ولم تعد تقتصر على وصف البلدان المتخلفة بالفموض والسحر ، بل أصبحت تهاجم ما يموج بها من انتفاضات وطنية .

ان أحدث اعداد « المختار » يتضمن ثلاث مقالات رئيسية اولها بقلم آن لندريج عن مجلة « لايف » تحت عنوان « اكتشفت نفسي في افريقيا » حول رحلة صيد « عائلية » قامت بها الكاتبة في شرق افريقيا (المختار مارس ١٩٦٧) . وتخرج من المقال بان افريقيا حديقة حيوان كبيرة ومسلية وتفري بالمغامرة . وفي نفس العدد مقال ملخص من

كانت المفاجأة الجديدة التي حملتها الينا الرياح القادمة من بيروت هو هذا السيل الجارف من المجلات المتخصصة : أطفالكم تستهويها مفامرات « سوبرمان البطل الجبار » فليقرأوا اذن مجلة « سوبرمان » تصدر عن شركة المطبوعات المصورة . صبيانكم مولعون بمفامرات « الرجل الوطواط باتمان » فلنصدر لهم مجلة « الوطواط » عن نفس الشركة السابقة . شبابكم مفرم بالعميل السري « جيمس بوند » فليقرأ بهم اذن المجلة المتخصصة جداً « الجواسيس » عن دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة . فماذا تنشر هذه المجلة على سبيل المثال ؟ بحرف اسود بارز كتبوا تحت اسمها « اشهر واغرب قصص الجاسوسية العالمية وقصة الحرب السريعة الباردة بين المسكرين » . ثم يوجه الناشر خطابه الى قارئه العزيز : « .. هذا عصر الجاسوسية ، سواء في الحقيقة ام في القصة .. ففي نفس اليوم الذي اصطف الناس في طوابير امام دور السينما لمشاهدة اخر افلام جيمس بوند ، أعلن مكتب التحريات الفيدرالي في اميركا اعتراف جندي سابق في جيش الولايات المتحدة بالتجسس لحساب الروس » . والموضوع الاول في المجلة - نقلا عن الجزء الخامس من المجلد الاول - هو مقابلة اجراها المحرر مع « قطب كبير في دائرة الاستخبارات » على حد تعبيره .. ومن أهم الاسئلة والاجابات التي تمت في المقابلة ما جاء بالحرف في (ص ٤) :

« س : هل بوسع أي انسان عادي أن يلتحق بالاستخبارات ويقوم بمهام تجسس بمجرد قبوله وتوقيعه على الاوراق ؟
ج : ان معظم مؤسساتنا ومنظمات الاستخبارات لديها في هذا الشأن بعض المتطلبات التوظيفية .. وايضا هناك بعض المناهج التدريبية التي يجب أن يمر فيها من يحوز القبول .
س : ما هي أهم الصفات والمؤهلات التي يجب توفرها في الجاسوس ؟

ج : هذا امر يتعذر تمييزه وتوضيحه .. فمعظم الدبلوماسيين والمحققين العسكريين والمحققين الصحافيين والتجارين يعملون اليوم كجواسيس طالما انهم يجمعون المعلومات بانسر . ولكنهم يتمتعون بستان ونظية تامة ألا وهي الحصانة الدبلوماسية . تسألني بعد ذلك ما هي صفات الجاسوس ؟ انها مسألة تكن في سيرة الاشخاص ، ومع ذلك فثمة صفات أساسية يجب توفرها في الشخص مثل أن يكون اما ببعض اللغات سريع البديهة والمباهمة .. قوي الجسد .. الخ .
س : يتهم الجواسيس الروس بانهم يستعملون الرشوة والتشهير والجنس والكحول والمخدرات وكل أداة أخرى شيطانية .. فهل باقي جواسيس العالم يلجأون الى نفس الاساليب ؟
ج : ولم لا .. كل هذا جائز وعادل سواء في الحرب الساخنة ام الباردة .. »

هذه عينة فقط من حوار مثير كتب كما لو كانت المجلة اعلنا كبيرا عن وظائف خالية في دوائر وكالة المخابرات المركزية .. فاذا تصفحنا المجلة بعد ذلك لرأينا نماذج متعددة لجيمس بوند بين احضان الفاتنات العاريات .. او لقرانا المغامرة الجغرافية لاحد العملاء السريين الذي وقع في « قبضة الصين الشيوعية » . وليست « سوبرمان » او « الوطواط » الموجهتين الى الاطفال والمراهقين الا تصورا كاريكاتوريا

مجلة « تايم » عبارة عن « كشف حساب ارباح الزنجي الاميركي وخسائره » فتراه يقول بالحرف (ص ٢٧) : « انه على الرغم من ان البيض ما زالوا يخبون اكثر كثيرا من الزنوج فان دخل الزنوج في عدد من المناطق قد ارتفع بمعدل ٢٤ ٪ منذ سنة ١٩٦٠ مقابل ١٤ ٪ فقط للبيض » . وفي (ص ٢٨) يقول : « وفي الجنوب يستخدم الذين حصلوا على قدر طيب من التعليم لأول مرة في وظائف الكتب ورجال البوليس والمرضات في مستشفيات البيض ومدرسين في مدارس البيض » . وفي (ص ٢٩) يقول : « آحرز الزنوج مكاسب مثيرة في ميدان التعليم ، فقد ارتفع عددهم في الكليات والجامعات الى ٢٢٤ ألفا ، وهو رقم اكبر كثيرا من جملة عدد الطلبة في بلجيكا والسويد والنرويج والدانمرك وفنلندا وسويسرا معا » . وفي (ص ٣٠) يقول : « انه في الميدان السياسي كان التقدم عظيما ، فقد ارتفع عدد الزنوج الذين يقدمون للوظائف التي تشتمل بطريق الانتخاب الديمقراطي بنسبة ٢٤ ٪ في الحزب الديمقراطي خلال العامين الماضيين فقط ، كما ارتفع عدد الزنوج في الكونغرس الاميركي من اثنين في عام ١٩٥٤ الى سبعة في الوقت الحالي » .

فرانكلين ليست تبادل ثقافيا

والان ما هي المواجهة التي قامت بها فرانكلين حين خرجت من بطن الحصان الطروادي الى حياتنا الثقافية ؟ لقد رسمت سياستها في نيويورك على اساس ان الموافقة النهائية على الكتاب المقترح ترجمته تتم هناك في اميركا . وعند التنفيذ رسمت هذه السياسة طوقا جديدا يحيط بكافة الاهداف التي حرصت المؤسسة منذ البدء على اصابتها : الطفل الصغير والشباب في مستقبل العمر والرجل الناضج والسيدة المتزوجة ربة المنزل والراة العاملة .. الى بقية القائمة التي تتلخص في مجموعها مختلف فئات الشعب المصري وطبقاته الاجتماعية . ومن أجل اصابة هذه الاهداف التي يحددها اطارنا الفكري الواضح وهو التطور نحو الاشتراكية ، كرست المؤسسة مجموعة من « السلاسل » التي تخصصت في التربية كسلسلة « دراسات سيكولوجية وعلم النفس للاباء والمدرسين » وسلسلة « الثقافة العائلية » وسلسلة « بحوث تربوية في خدمة المعلم » وسلسلة « التعليم في ضوء التجارب » .. وهناك السلاسل التي تخصصت في العلوم مثل « ألف باء » و « كتابك

الاول عن » و « العلوم البسيطة » و « كل شيء عن » و « مصالمة الطريق » و « حول العالم في كتب » وسلاسل أخرى عن فن الادارة « كيف تكون مديرا ناجحا » و « رجيل الادارة » و « دولة الادارة » و « المؤتمرات المثمرة » و « كيف تدير المناقشة » . اما ماذا تقوله هذه السلاسل جميعها فهي تقدم في صورة تبدو كما لو كانت محايدة وموضوعية تماما « المثال الاميركي الناجح » لتعلم والتلميذ والمهندس والطبيب والعامل والمدير والسياسي ورجل الاعمال والفلاح .. الى غير ذلك من نماذج بشرية ترغب السياسة الاميركية لمؤسسة فرانكلين أن تصوغها وفق « الحكم الاميركي » في السيطرة على الشعوب عن طريق اتساع الهوة بين المواطن ووطنه فلا يجد ملاذا يؤويه سوى « اللجنة الاميركية » . وتعلم المؤسسة اطراف الكتاب العرب والمترجمين العرب ، فتدفع أحدهم مثلا لان يكتب مقدمة لكتاب « قصة افريقيا جنوب الصحراء الكبرى » ، تأليف كاتارين سايديج » . ويقول المترجم في مقدمته ان الكتاب يتميز بروح من الدقة العلمية والنزاهة فسي العرض ، بينما يبرر المؤلف الاستعمار البرتغالي لافريقيا بان البرتغاليين انما « علموا أهلها كيف يزرعون النباتات » . وتدفع نفس المترجم أن ينقل كتابا عنوانه « نظرات في مستقبل الحركة العمالية » يقول مؤلفه عند الخاتمة أن النظام الذي يتعرض للمحاكمة الآن ليس هو النظام الرأسمالي بل هو النظام الاشتراكي ، والنموذج العظيم للرأسمالية الحديثة هو النموذج الاميركي .. لذلك تترجم المؤسسة كتابا مثل « البيت المسحور - تأليف جولوس شوارتز » يقدم البيت الاميركي البديل الراقي المتحضر للبيت الذي يسكنه القارئ المصري ، وكتابا مثل « تعال معي الى السد - تأليف دي دايف هاملتون » يتضمن وصفا تفصيليا لسد جيلين كاينون باميركا ، الذي يعتبر اعظم المشروعات الانشائية الحديثة ، مع ملاحظة ان الكتاب نشر في سلسلة موجهة الى الاطفال كذلك الكتاب الذي يقول فيه المؤلف : « كان الشعب المصري شعبا نبيلًا متدًا بنفسه ، وعاش ملوكه في ابهة من الذهب والجواهر لا نجد لها مثيلا في عالمنا » ثم يضيف : « وانقرض هذا الشعب القديم وتلاشى ما بقي منه في جنس اجنبي من الفزاة ، وبقي فقط اعظم

اي ان اميركا بساطه هي جنه زنوج ، وليست - كما يقال - جحيما يدعى احيانا بماساة النرفة النصرية . وهكذا نجد ان المجلة الموجهة الى مثقفي اميرجوازية الصغيرة في مصر والمنطقة العربية بأسرها قد غيرت من لهجتها ومحاور تفكيرها عما كانت عليه بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٨ اذ أصبحت بوقا للولايات المتحدة في مرحلتها الجديدة حيث تكشف عن آيائها الذرية وتشوه الحركات الوطنية وتستعدي انشعاب الحرة على الاشتراكية والمسكر الاشتراكي (١) .

على ان المخابرات الاميركية لم تقتصر في الحرب الفكرية التي تشنها على شعوب المستعمرات والبلدان المستقلة حديثا ، على المجالات المتخصصة حسب الاعمار والبيئات والاهتمامات ، بل واظبت على شكل

آخر من اشكال « تصدير الفكر » في مقدمتها دور النشر التي تحمل واجبات براءة كشمارة « مؤسسة فرانكلين » « مؤسسة ثقافية غير تجارية » عن طريق اتفاقيات التبادل الثقافي التي يتم توقيعها على مستوى الحكومات ، وأن ترك الامر في بلد كالولايات المتحدة لشركات ومؤسسات تكشف الصحافة الاميركية هذه الايام بصراحة منهلة عن مصادر تمويلها ، التي يخرج معظمها من خزينة وكالة المخابرات المركزية .. واما عن طريق مكاتب الاستعلامات التي تخضع بصورة أو باخرى لاشرف نفس الوكالة كما جاء في كتاب « الحكومة الخفية » (ص ٢٩٢) وهكذا ظهرت مؤسسة فرانكلين في القاهرة عام ١٩٥٣ كأول فرع لهذه المؤسسة الاميركية خارج الولايات المتحدة .

وإذا كانت اتفاقية التبادل الثقافي بيننا وبين اميركا تجيز نشر الكتب الاميركية التي تساهم في عملية « التفارب بين الشعبين » وإذا كانت هذه الاتفاقية تنص على عدم جواز نشر ما يسيء الى النظام الاجتماعي والسياسي لكل من البلدين فان مؤسسة فرانكلين دأبت منذ عام ١٩٥٣ الى الآن على تنظيم مواجهة فكرية غير متكافئة لتطورنا الاجتماعي والسياسي . وأقول « غير متكافئة » لاننا من جانبنا لم نقم في الولايات المتحدة بتأسيس دار مصرية للنشر مهمتها التحرش بالنظام الاميركي والدس له . وأقول « غير متكافئة » لان مؤسسة فرانكلين لم تقم من ناحيتها بتنفيذ نصوص الاتفاقية فيما يخص ترجمة الكتب العربية الهامة الى اللغة الانكليزية وطبعها وتوزيعها على الدوائر المالية والفكرية والادبية في الولايات المتحدة الاميركية . وأقول « غير متكافئة » لانه لم يحدث بين دور النشر المصرية ومؤسسة فرانكلين أي صراع يذكر ، لان المؤسسة كانت من الذكاء بحيث انها بادرت لا بنجميد أية امكانيات وليدة للصراع فحسب ، بل وتجديد أهم دور النشر المصرية

(١) أرجو مراجعة الدراسة التي نشرها صلاح عيسى بمجلة « الحرية » في عددي ٢٥٤ - ٢٥٥ من يناير ١٩٦٥ .

الجامعات الأميركية أو محلل القط :

على ان حضان طروادة الاستعماري تم يكتف قط بسبل المجالات المنحصصة ودور انشر واصدار الكتب . . وانما كان يرى في معاهد التعليم - وخاصة الجامعات - اسلحة بارعة في اصابة الهدد . والى وقت قريب كانت هناك جامعتان في الشرق العربي احدهما في بيروت والاخرى في القاهرة . . وفي ماضي الماضي وضع حجر الاساس في طنجه بالمغرب لاقامة الجامعة الاميركية الثالثة في المنطفة العربية .

أما في بيروت ، فقد اذاعت لجنة الطلبة في الجامعة الاميركية تقريراً ضمنته نتائج أبحاثها في النشاط المنسبوه أئدي تقوم به الجامعة الاميركية في بيروت . وقد أكد التقرير وجود علاقة بين هذه الجامعة ووكالة المخابرات المركزية الاميركية وان رئيس اتجامة الاميركية مستر كيركود يعرف أسماء الاعمالين في خدمة المخابرات داخل الجامعة . كما كلفت المخابرات الاميركية أحد أساتذة الفلسفة بتنفيذ خطة لمحاربة الانتاج الفكري التقدمي . وقال التقرير ان المخابرات الاميركية تستتر خلف برامج تعليمية محددة لتوجيه أسئلة خاصة تتعلق بعلم النفس والاجتماع ، وترسل الاجابات على هذه الاسئلة الى مقر المخابرات في اميركا « كما جاء في الاهرام بتاريخ ٢٢ - ٣ - ١٩٦٧ » نقلاً عن وكالات الاباء . وهو نفس المنهج الذي تتبعه الجامعة الاميركية بالقاهرة ، فقد حدث أن أوفدت ثلاثة أساتذة هم ماكورد ودولب الاميركيين وفاخوري الاردني الى محافظة اسوان للقيام بمسح اجتماعي وسيكولوجي لتسعب المنطفة . ولكن طبيعة الاسئلة اثار الشكوك عند المسؤولين في المحافظة . ومن ثم كان الموقف هو ان السلطات كتبت رسمياً الى الجامعة تقول انه ينبغي ان يرجع الاساتذة والطلبة الوافدون الى الجهات المسؤولة في المحافظة قبل وبعد توزيع الاسئلة على العينات انبشيرة المطلوبة وذلك حتى يتحقق لنا نوع من الاشراف القومي على الابحاث التي تقوم بها جامعة اجنبيية داخل حدودنا . ولكن الجامعة الاميركية رفضت هذا الطلب تعادل من جانب السلطات المصرية التي لم يكن امامها - والحالة هذه - الا ان ترفض بدورها الجولات المرببة للطلبة والاساتذة الاميركيين بين عمال السد الصبالي وشركة كيما . ان وحدة المنهج بين جامعتي بيروت والقاهرة الاميركيتين مصدرها وحدة الادارة العليا التي يتبعانها في واشنطن . . والجامعة الاميركية في أي بلد عربي ليست الا أداة تنفيذية في أيدي سادتها في الولايات المتحدة . فقد حدث ان اهتمت الجامعة الاميركية في القاهرة بدراسة التاريخ المصري الحديث اهتماماً اثار الريبة الشديدة، اذ بدأت تتصل ببعض الشخصيات السياسية من رجال ما قبل الثورة لتحصل على مذكراتهم . كما بدأت تتصل بعائلات بعض الشخصيات التي أصبحت في ذمة التاريخ لتحصل أيضا على مذكراتهم . . ولما كان الامر يتصل مباشرة بتاريخنا القومي فقد توجهت الجهات المسؤولة الى ادارة الجامعة الاميركية بالقاهرة يقول : « اننا لا نرفض التعاون العلمي بل نرضى به » . ولكننا نرى أن يكون هذا العمل المشترك بين أساتذة التاريخ المصريين والباحثين الاميركيين تحت اشراف جامعة القاهرة .

وقد ردت رئاسة الجامعة برفض الاقتراح ، وان تم تسحب المشروع ، بل ضاعفت نشاطها عن طريق المكتبة التي حشدتها بمختلف المراجع الاميركية ، وممر الفنون الذي يبر في عرض لوحات الفنانين المصريين ودعوة بعض ادباء الغرب للالتقاء بالمتفقين المصريين . وبالرغم من ان تقرير لجنة الطلبة بالجامعة الاميركية في بيروت ينطوي على اتهام جميع الجامعات الاميركية خارج الولايات المتحدة ومن بينها الجامعة الاميركية في القاهرة ، الا اننا نضيف ايضا ما اعلنه الدكتور مالكين مدير الجامعة الاميركية بالقاهرة عن أن هذه الجامعة قد تلقت عام ١٩٥٩ من حكومة الولايات المتحدة منحة مقدارها ٥٠٠٠٠٠ دولار لتوسيع نطاق منشآتها « وستؤخذ أموال هذه المنحة من ارصدة برنامج الامن التبادل الاميركي . ويعتبر هذا الامر من جانب الولايات المتحدة جزءا ساري المفعول من جانب حكومة الولايات المتحدة لتعزيز

اتاره واقواها بناء واقليها اطلاق » (ص ٥٩ من كتاب البعثات العلمية الشهيرة ، تاليف رايونود هولدن) .

وتلجأ المؤسسة أحيانا الى ما تسميه بالتهريب ، فتخلع الاسماء الاميركية وتضع مكانها الاسماء العربية فينالق الحلم الاميركي فسي الذهن العربي القارئ حتى ليكاد أن يكون واقفا ممكنا . . لو انبنا أخذنا بالوجه الاخر للفضية ، اتوجه الذي توليه فرانكلين جل رعائتها واهتمامها وهو النظام الاقتصادي واتسياسي فتتنظم حطها وفق تطور الاحداث في بلادنا ، فاذا كان تطور القانون هو الموضوع المثار صدر كتاب مثل « النظام القضائي في الولايات المتحدة » ، واذا كانت انتخابات الرئاسة هي الموضوع المثار صدر كتاب مثل « سلطة الرئيس في الولايات المتحدة » ، واذا كان الدستور هو المثار صدر كتاب مثل « التجربة الدستورية في الولايات المتحدة » ، واذا كانت الحرب في فيتنام هي الموضوع المثار صدر كتاب مثل « قصة الدنيا الجديدة » يبرر الفاء القنابل الذرية على هيروشيما وناكازاكي ويؤكد ان اميركا تعاون بقية الامم على أن تعيش في سلام دائم (١) .

ينم ذلك في تسييق كامل ودقيق مع مكتب الاستعلامات بالسفارة الاميركية فيصدر كتباً في نفس الموضوعات المثارة بأسعار زهيدة وورق فاخر وقد خلت من خاتم فرانكلين او اية شبيهة اميركية ظاهرة . . فالناشر عربي والترجم عربي ، ولا شيء اخر يثير الشبهة سوى السعر الزهيد والورق الفاخر والموضوع الاميركي والمعالجة الاميركية . . بالاضافة الى هذا التوقيت المريب . . وهذه الدقة في اختيار القضايا المطروحة . . فعندما توفقت خطة التنمية في بلادنا ظهرت على الفور هذه الكتب « الرخاء بدون تضخم » ، و « تجارب في تنمية المجتمعات الصغيرة ومعونة الدول النامية » و « أضواء على التنمية الاقتصادية » و « فلسفة النظام اتصاوني » . ان المؤسسة الاميركية ومكتب الاستعلامات الاميركي لا يتكفيان بتقديم « النموذج الاميركي » الذي يجسد في عقل القارئ العربي وخاله « حلما » دائما ، وانما هما يقدمان « الطريق » الاميركي لتحقيق هذا الحلم وذلك النموذج . انهما يقدمان « الحل » السياسي والاقتصادي البديل لنظامنا الاجتماعي فيهيئان بذلك مناخا فكريا للثورة المضادة . وليس هذا الهدف الذي ترسمه وترعى تنفيذه وكالة المخابرات المركزية هو انهدم الذي صاغته الاحرف والكلمات في بنود انفاقية التبادل الثقافي بينا وبين الولايات المتحدة الاميركية . انهم يستخدمون الاسماء الكبيرة في ثقافتنا للتضليل والارهاب العلمي ، ويصدرون المراجع الكبرى والموسوعات التي تربط ثقافتنا تلقائيا بجعلتها لشمرات السنين وهم يعدون ما يسمونه بالاستفتاءات للاستطلاع برأي الطلبة والمدرسين وهنئ الكتب ثم يصدرونها في ابحاث خلت أغلفتها من اسم فرانكلين وكتب عليها « وزارة التعليم العالي - التخطيط » و « وزارة التربية والتعليم - مكتب خبير التقييم والامتحانات » . واذا اثرت قضية تطوير التعليم صدرت كتب مثل « التعليم العالي في الولايات المتحدة » و « احاديث عن التعليم في اميركا » و « مدارس الغد في الوقت الحاضر » وهو تقرير عن التجارب التعليمية لوزارة التربية بولاية نيويورك .

لقد نجحت السياسة الاميركية - سواء كانت وكالة المخابرات المركزية أداة تنفيذية أو جهة تمويلية - في أن تجند لخدمتها شبكة هائلة من دور النشر المصرية والعربية التي تفضل الطريق السهل الى أكبر وأسرع ربح ممكن . والتسهيلات الضخمة التي تقدمها فرانكلين والسفارة الاميركية تكفل لها هذا الطريق القصير . كما نجحت هذه السياسة في تجنيد جيش ضخم من الكتاب والمترجمين ارتبطت مصالحهم بالكافآت السخية التي تصرفها جهات التمويل في مقابل التقديم أو المراجعة أو الترجمة أو الاعداد أو الاشراف أو الاستشارة أو عضوية مجلس الادارة .

(١) راجع مجلة « الكتاب » - عدد يناير ومارس ١٩٦٧ - مقال

عبد الجليل حسن .

المعاهدة الاميركية خارج الولايات المتحدة» (كما جاء في نشرة الانباء رقم ١٥٧٣ مكتب الاستعلامات الاميركي) .

كذلك اذيع عام ١٩٦٤ ان ثلاثة معاهد اميركية للتعليم في الشرق الاوسط سوف تتسع ويزداد نشاطها « بالتمح التي ستقدم اليها من وكالة التنمية الدولية » وهذه المعاهد هي الجامعة الاميركية في بيروت والكلية الاميركية في بيروت وجامعة الاميركية في القاهرة وهي معاهد خاصة انشئت منذ زمن طويل وطلقى المساعدات من الهيئات فسي الولايات المتحدة ومن بينها مؤسسة فورد . . وقد افاضت الصحف الاميركية في ايضاح العلاقات التمويلية بين هذه الهيئات وبين وكالة المخابرات المركزية ، فهي اما انها تساهم بجزء من المبالغ المدفوعة ، او تقوم بدور السمسار او « القومسيونجي » الى غير ذلك ممن الشرايين التي تنبع من المخابرات اولا ثم تصب في النهاية عند الجداول التي تحمل لافئات ثقافية « خاصة » و « غير تجارية » ، وان لم تنس هذه اللافئات وظيفتها الاصلية في اوقات المناسب فتكشف الجامعة الاميركية في بيروت عن طبيعتها فتنفصل ١٢ طالبا عربيا في نوفمبر ١٩٦٥ لاشتراكهم في مظاهرة من اجل الجزائر « وقد وصف وزير التربية اللبناني الجامعة الاميركية في استجوابه بالبرلمان بانها دولة داخل دولة » .

ولما كانت وكالة المخابرات المركزية تعمل بموافقة لجان الكونغرس الكاملة التي انشئت لمراقبه المخابرات وعملها فيما وراء البحار ، أي ان عملياتها جزء من السياسة العامة - التي لا تعلن مطلقا - لحكومة الولايات المتحدة (ريتشارد هاروود - الاهرام ٦ - ٣ - ١٩٦٧) وبالتالي فان تستر هذه الجامعات وراء العبارة التقليدية « معونات حكومية » او « معونة هيئات خاصة » لم تعد تضلل أحدا من المثقفين العرب . . الا هذا النفر الذي تجاوز مرحلة « الشبهة » او « حسن النية » الى مرحلة العمالة المباشرة بما يتولاها هذا أو ذلك من مراكز استراتيجيية في حياتنا الثقافية تتبع هذه الهيئة او تلك من الهيئات الاميركية المشبوهة . . كل هذه « المناصب » الاميركية تجل من صاحب هذا الاسم او ذلك ممثلا مباشرا للمصلحة الاميركية في الشرق الاوسط على الصعيد الفكري ، لانه اولا واخيرا « موضع ثقة » اكبر الجهات المسؤولة عن توجيه حضان طروادة الاستعماري في حياتنا الثقافية . وليس هذا الاسم او ذلك الا نماذج لهذا النفر من المثقفين العرب الذين ارتبطت مصالحهم نهائيا بقواعد الاستعمار الفكري لبلادنا . فالنسبة المشتركة بينهم جميعا انهم ضالمون في تنفيذ المخطط الاميركي لمركة الفكر في انجبهه العربية ، والسمة الاخرى هي انك تجدهم على أغلفة المجلات المشبوهة ، والكتب الزهيدة الشمسن ذات الورق الفاخر ، ومجالس ادارة المؤسسات السخية في الدفع ، ودوائر التعليم الوافد من وراء البحار . . كل هذه المناصب مجتمعة في وقت واحد . فكيف يمكن لهذا النموذج من « المواطنين » ان يرفع عينه في وجه « السيد الاجنبي » او على اقل تقدير ، كيف يمكن ان يخدم الثقافة الوطنية ، وقد تأقلم اجتماعيا واقتصاديا وذهنيا باجهزة التكيف الاميركية ؟

اننا حين نقرأ في الصحافة الاميركية هذه الايام عن تمويل المخابرات الاميركية للمعهد الافريقي الاميركي والجمعية الاميركية للثقافة الافريقية وهيئة التبادل الثقافي الحكومية والتبادل الثقافي مع افريقيا (ومجلتا أفريقيا ديوروت واميركان فورام) والمنظمة العالمية لحريية الثقافة (حوار - اناكونتر - بريف) وجمعيات الشبان والشابات المسيحية والاتحاد الدولي للشباب الاشتراكي ومكتب الصحافة للطلبة الاسيويين وجمعية اصدقاء الشرق الاوسط . . حين نقرأ هذه العناوين التي تهمننا نحن سكان هذه المنطقة من العالم ، نضع أيدينا في حقيقة الامر على الاخطبوط الرهيب لشبكة المخابرات الاميركية ، الاخطبوط الذي يشير بقوة وحسم الى دلائل رئيسيتين : اولاهما ان الحروب الفكرية التي يشنها الاستعمار الاميركي على المنطقة العربية قد ازدادت ضراوة خلال السنوات الخمس الاخيرة ، أي بعد ان اختطت بلادنا منهج التطور الاشتراكي طريقا لحياة شعبنا الاقتصادية والاجتماعية

والسياسية ، فان اتخاذ هذا المنهج استتبع بالضرورة تقليص اطاقات الرجعية المحلية المرشحة دائما - في ظل بعض الظروف - ان تقوم بدور العمالة للاستعمار أو التحالف معه سواء تم ذلك عن طريق الطبقات التي اصيرت مصالحها الاجتماعية فعلا ، أو عن طريق ممثليها الفكريين من المثقفين الضالمين معها .

أي ان غياب الارض الاجتماعية الصالحة لازدهار الفكر الرجعي قد تسبب في حماس الامدادات الاجنبية الواردة من الخارج . . غير ان هذه الامدادات نفسها ما كانت لتستقر او تنتعش لولا انها وجدت « مناخا » مهيأ لاستقبالها بواسطة هذا النفر الذي ارتبطت مصالحه بالامداد الاجنبي ، واما بواسطة الرواسب الفكرية المتبقية مع انقراض الطبقات المنهارة . و أخيرا بواسطة التخريب المتقن لثقافتنا الوطنية الذي كان يتم داخل الاجهزة الرسمية كما جاء في البيان الفاجع لوزير الثقافة في مؤتمر الكتاب العربي .

تنظيم سري لتهوديد المسيحية

المسيحية « الحقيقية » لا علاقة لها بما يقال على السنة كسبار رجال الدين المسيحي في العالم . الانجيل « الحقيقي » لا علاقة له بكل ما يتردد بين شفاه المسيحيين على ظهر هذا الكوكب . هذه الارض التي نعيش عليها ان هي الا مملكة انشيطان . والخلص من الجحيم لم يكن الا لقلعة مختارة هي سر الاسرار في كتاب « يهوه » ملك السلوك ورب الارباب .

هذه بعض الشعارات التي حملت لواء ذبوعها وانتشارها حوالي عام ١٩٥٦ مجموعة من الفتيات الجميلات اثلاثي لا تزيد اعمارهن عن العشرين عاما . . فكن يدخلن البيوت في القرى والاحياء الشيعية بالمدين ، وفي يمينهن « الكتاب المقدس » وفي يسارهن بعض الكتب الاخرى التي طمعت باللغة العربية وان تم طبعها كما يقول الفلاف في الولايات المتحدة الاميركية (١) .

وكانت هذه الكتب تحمل عناوين تقول « لكن الله صادقا » او « في هذا خلاصنا » ، وهذه الفتيات الجميلات بجنسياتهن المختلفة ولفانهن المتنوعة يصحجن معهن بعض الفتيات أو الشبان المصريين ، ويرسمن على شفاههن ابتسامة دائمة وهن يستاذن في دخول البيوت المصري « لسماع كلمة الله » . .

ثم تنهت الكنيسة المصرية الى ان شيئا غريبا يحدث ، فتعقبت هذه الاقدام الجريئة التي يزعم اصحابها انهم لا ينشرون ديننا جديدا ، وانما هم يكشفون الفطاء عن جوهر الدين القديم ، الدين الذي أسسه « يهوه » اول الالهة وآخروهم كما يقول أحد الكتب التي تقدمها مجاناً الفتيات الجميلات .

والمعروف ان « يهوه » هو التسمية اليهودية لله ، كما جاءت في التوراة . واستطاعت الكنيسة المصرية ان تعرف ان هناك « مركزا عاما » لهذه الجماعة الوافدة من اميركا تتخذ لنفسها اسم « برج المراقبة » في القاهرة . وكان الاعضاء الاجانب والمصريين في هذا البرج يسمون أنفسهم « بشهود يهوه » ، رسالتهم الملنة هي التشييز بفساد الحكم والحكام في ظل جميع الانظمة الاجتماعية الماخسوذ بها في أي مكان ، وأن البشرية المعاصرة آلت نهائيا الى « ملكية ابليس » والخلص الوحيد المنتظر هو للذين اختارهم يهوه العظيم .

وفي يونيو ١٩٦٥ صدر قرار من وزير الشؤون الاجتماعية يحمل رقم ١٥٥ « بشأن حل جمعية شهود يهوه - برج المراقبة للكنسب المقدس - وتصفية اموالها » وذلك بعد ان تاكد لسلطات الامن ان هذه الجمعية تمارس نوعا من العمل السياسي غير المشروع وتستتر فسي

(١) ارجو مراجعة التحقيقات الصحفية التي نشرتها مجلة « صباح الخير » في ٦ ، ١٣ ، ٤ - ١٩٦٧ ومجلة « المصور » في ١٣ - ٤ - ١٩٦٧ .

تنمة حصان طروادة

احفاء نواياها الحقيقية خلف « الدين » . وكان اشتباه رجال الامن والكنيسة معا هو ان الجمعية هي احدى المحاولات التي تبذلها الصهيونية العالمية من اجل « تهويد المسيحية » وبالتالي ايقناع البسطاء من المؤمنين في شرك الدعاوى الاسرائيلية .

وقد تاكدت هذه الحقيقة الان بعد ان اكتشفت جهات الامن في القاهرة ان « شهود يهوه » لم تحمل عصاها وترحل عن ديارنا عام ١٩٦٠ بل هي قد اعدت تنظيم نفسها تنظيما دريا تم القبض على بعض افراده بتهمة « مزاوله نشاط لجمعية كان قد صدر قرار بحلها » . . وقد وقف الاعضاء الاثنا عشر المقبوض عليهم امام المحقق يعترفون بانتسابهم « للبرج » وانهم يجتمعون بصورة دورية ويجمعون مسن بعضهم الاشتراكات ، وان المقر الرئيسي للجماعة في بروكلين بالولايات المتحدة . وما لم يعترف به الاعضاء ان « شهود يهوه » احد المراكز الثقافية التي ترفع لافتة المسيحية بينما هي تسمح لوكالة المخابرات المركزية بالاسهام في تمويلها كما جاء في مقال جيفري وولف في الهيرالد تريبيون (الاهرام ١٤ - ٢ - ١٩٦٧) .

والامر من الناحية القانونية في ايدي سلطات التحقيق ، ولكن الذي يعنيننا هنا هو الدلالة السياسية الخطيرة من زاويتين : الاولى هي استخدام ما يدعى بالثقافة المسيحية التي تصل بيوتنا اما عن طريق الفتيات الجميلات « شهود يهوه » واما عن طريق البريـسد « مراسلات جمعية اصدقاء الشرق الاوسط في بيروت » واما عن طريق كنائس هذه الجماعة التي ما تزال تمارس نشاطها المريب تحت اسم « السبتيين » او « الادفنتست » وهي جماعة تقصر رسالتها على الدعوة الى اتخاذ يوم « السبت » يوما للعبادة بدلا من الاحد . وهي دعوة شبيهة الى درجة كبيرة بدعوة شهود يهوه الى تسمية الله بالاسم اليهودي « يهوه » فالقاسم المشترك بينهما هو « تهويد المسيحية » ، ومن زاوية اخرى فان صدام هذه الجماعات المباشر مع قوانين البلاد للدرجة التي معها يخرجون على هذه القوانين فينشئون تنظيمات سرية يجندون له ابناءنا المصلين وبناتنا المخدوعات . . ان هذه الظاهرة تعني ان التستر واتخفي لم يعد هو الاسلوب الوحيد لمركة الاستعمار الفكري ، بل هو على استفاد لان يقاوم بالفصل لا بالكلمة وحدها، وان يناضل بالحركة المنظمة لا الفكر المجرد .

واذا كنا قد تبهنا مؤخرا الى ضراوة المركة الفكرية التي يشعلها الاستعمار في جهات متعددة وفي وقت واحد ، فان علينا ان نتنبه اكثر فاكتر الى كافة الاقنعة والاسلحة التي ما يزال ينجح في استخدامها وتوظيفها . فجماعة شهود يهوه او السبتيين لا يدخلون الى عقسل المثقف المسيحي في مصر عن طريق الدين ، وانما عن طريق الثقافة . انهم يرصعون دعاوهم لا بكلمات المسيح او يواس او يوحنا ، وانما بكلمات نيئتسه وشوبنهاور وشبنجلر . . ولا مانع لديهم من حفلات الرقص وسهرات الشراب والكتاب المقدس مفتوح بين الاذرع والسيقان والكؤوس !! هذا حدث في اجتماعاتهم في البيوت او في « البرج » وما يزال يحدث في كنائس الادفنتست بعد « العظة » التي يليها امهر القساوسة الاميركيين ، خاصة اذا تم اختيارهم من بين الزوج الذين تقدمهم زوجاتهم البيضاء الى جمهور المصلين قبل البدء في الصلاة والحث على استبدال يوم الاحد بيوم السبت لعبادة الله .

الاستعمار لا يغير جلده

ان ظاهرة « الاستعمار الجديد » في الميدان الاقتصادي والسياسي لها جانبها الثقافي الملازم للظاهرة تلازما تلقائيا . . فانحرب الفكرية التي تشهدها الان لا تقوم على اساس « التدخل في شؤوننا الداخلية » الثقافية بل هي تربط المثقف العربي بعجلتها عن طريق التسييرات المذهلة في تقديم المراجع الاميركية - العلمية والادبية - واصدار الموسوعات والمعاجم التي تربط الثقافة العربية بالمجلة الاميركية

امادا طويلة من الزمن . خاصة وان المكتبة العربية قد خلت لظروف عديدة من المراجع والموسوعات والمعاجم التي لا سبيل الى الشك في مضمونها . ان المراجع التي تحتشد بها رفوف المكتبة الاميركية في القاهرة بافلام اساتذة هارفارد وكاليفورنيا وبنسلفانيا أشهر الجامعات التي تحولها وكالة المخابرات المركزية ، ولكننا في المقابل لا نجد المراجع الوطنية البديلة او المراجع الاجنبية النسي لا يرقى اليها الشك . ويستخدم الاستعمار الثقافي الجديد أحدث منجزات التنكيك والطم في الترويج للقيم والافكار المعادية لتطورنا الاشتراكي . وهو ينتهز بطبيعة الحال فرصة الانضعف التي تشتمل عليها المرحلة الاولى من نمو الفكر الاشتراكي على ضوء التجربة المحلية البازغة في بلادنا . كذلك فهو ينتهز فرصة ان آجبالا عديدة من رجال الفكر العربي المعاصر قد حصلوا علومهم ومناهجهم بين احضان الجامعة الاميركية في بيروت ، او الجامعات الاميركية المشبوهة في الولايات المتحدة .

لهذا فاننا نطالب بضرورة تنفيذ نصوص اتفاقية التبادل الثقافي التي لا تبيح لاية مؤسسة اجنبية ان تشن هذه الحرب الضروس ضد عقولنا ووجداننا . ومن ناحية اخرى نطالب الافلام العربية ان تكف عن التعاون مع مؤسسة فرانكلين بعد ان تبين لكل ذي عينين انها احدى قلاع الاستعمار الفكري الجديد ، ولا شك ان يقظة الضمير الوطني عند هؤلاء سوف تكون عاملا فعالا في سحب الارض من تحت اقدام الاجنبية ما دام التواطؤ معها يؤدي الى الحافة الخطرة التي يسهل عند الوصول اليها الانزلاق الى مهووي الخيانة الوطنية .

كما اننا لا نطالب مكتب الاستعلامات الاميركي ان يفلق ابوابه ، ولكننا نطالب بعدم تضليل القاريء باسم انناش العربي والمترجم العربي ، بل لا بد من كتابة اسم مكتب الاستعلامات الاميركي على الغلاف ما دامت السفارة الاميركية هي جهة التمويل الحقيقية للكتاب . ومن ناحية اخرى فاننا نطالب دور النشر العربية بالكف عن التعامل مع مكتب الاستعلامات الاميركي بعد ان تبين خضوعه المباشر لاشراف وكالة المخابرات المركزية . فالمسافة تزداد ضيقا بين معنى التمسامل ومعنى العمالة .

كما اننا لا نطالب باتخاذ اجراء معين من الجامعة الاميركية وانما نطالب بضرورة الاشراف القومي الكامل على مناهجها واساليب الدراسة، اي ان تخضع لقوانين وزارتي التعليم العالي والتربية والتعليم بالنسبة لاطواع التعليم الخاص في بلادنا .

اما المجلات والكتب الواردة من بيروت ، واما الارساليات التبشيرية الوافدة من بروكلين ، فلا مناص من منعها من دخول جمهوريتنا . لانها لا تدخل باية حال من ابواب التبادل الثقافي واتفاقياته المشروعة ، بل هي تدخل من الباب الخلفي لوكالة المخابرات المركزية . وهو انباب الذي استطاع حصان طروادة الاستعماري ان ينفذ منه الى حياتنا الثقافية المعاصرة .



من أحدث الافلام التي اخرجها فرانسوا تريغور خارج فرنسا ، الفيلم الاميركي « ٥١ فهرنهايت » وهي درجة الحرارة التي تحترق عندها الكتب . وهو الفيلم الذي يثار لشرف الثقافة الانسانية من غوبلز الالمانى ، ومكارثي الاميركي . . فيصور الصراع بين همجية النازي والمكارثية وبين الحضارة الانسانية ممثلة في الكتاب ، وينتهي بالتمفرج الى ان النصر النهائي سوف يكتب للثقافة والانسان . فهل معنى ذلك ان الاستعمار الاميركي يسلم بهذه البدئية الصحيحة ؟ ام ان مرحلة الاستعمار الجديد استوجبت شكلا جديدا لميادين القتال الثقافية ، فلم تعد المكارثية الجديدة تحرق الكتب ، بل تصدرها ؟ اغلب الظن ان الاستعمار لم يغير جلده ولكنه يغير من اساليبه في الدفاع والهجوم فحسب . ولقد رأى اخيرا ان محاربة الثقافة بأسلحتها - وهي الكلمة المكتوبة والمسموعة والرئية - امضى اثرا من درجة « ٥١ ف » التي تحترق عندها الكتب ، وأخطر فعالية من مسدس غوبلز الذي يضع يده عليه كلما سمع كلمة « ثقافة » .